

مظاهر الشخصية المغتربة / قراءة في نماذج مختارة

Aspects of the Alienated character \ Reading in selected models

د. مشقوق هنية¹¹ جامعة محمد خيضر - بسكرة، hania.mechgoug@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2021/09/08 تاريخ القبول: 2021/11/11 تاريخ النشر: 2021/12/15

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على المظاهر الاغترابية لشخصيات الراويات المختارة، التي ألفيناها طافحة بالشعور بالاغتراب، وهو البؤرة المركزية التي ساعدتنا في القبض على أهم المظاهر التي أحاطت بالشخصيات المغتربة والممزقة، فكان منها القهر الذي بدا واضحا بنمطيه القهر المسلط من الرجل على المرأة، والقهر المسلط من المرأة على الرجل في جدلية واضحة أبانت عن فكر كل من الكاتبتين، والرفض والتمرد الذي جاء على شكلين؛ تمرد على العادات والتقاليد والتمرد على المؤسسة الزوجية.

كلمات مفتاحية: الشخصية، الاغتراب، القهر، الرفض، التمرد، الرواية.

Abstract:

This study shows the most important aspects of alienation in the characters of the selected novels. This alienation was the central focus that helped us capture the most important aspects surrounding these alien and torn characters. They include oppression that became obvious when imposed by women on men and vice versa, both in a clear dialectics that revealed the ideas of the two writers. This is along with rejection and rebellion, which manifested itself in rebellion against customs and traditions and against the marital institution.

Keywords: Character; Alienation; oppression; rejection; rebellion; the novel.

مقدمة:

أصبحت المتون الروائية النسوية نابضة بالاغتراب على اختلاف أنواعه وأسبابه ودواعيه، تجاه التجاوزات التي همشتها بل وفي أحيان كثيرة عملت على إقصائها ذاتا أنثوية وذاتا مبدعة في آن واحد، فالحس الاغترابي ملمح بارز وواضح في المنجز السردي النسوي حاضر في تضاعفه، فالمتمعن فيه يجد أن هذا الحس ملازم لشخصياته وأزمته وخصوصية الأمكنة المختارة لمجريات أحداثها.

فالقارئ المهتم بشؤون الرواية النسوية الجزائرية -تحديدا- يلمس فيها هذه الظاهرة بما تتضمنه من رؤى وأبعاد كابوسية، وشعور بالكآبة والشقاء، والمعاناة وعجز وإحباط، وتمزق ولا مبالاة؛ فضلا عن تبنيها لجملة من التقنيات المساعدة على تعميق هذا الشعور؛ كالمونولوج والتداعيات واللغة الشاعرية، والمصائر التعيسة التي التفت حول شخصياتها لتجد نفسها في دوامة الاغتراب، بوصفه حقيقة سافرة لواقع الإنسان المعاصر الممزق؛ فالحدث الأدبي لا يجي إلا إذا انطوى في داخله على جزء من اللاوعي باعتباره السبيل إلى طرق أعقد المشاكل التي تعاني منها الإنسانية اليوم.

وقد حفزتنا الأهمية البالغة التي تكتسبها هذه الظاهرة بوصفها شعار العصر حسب تعبير "رشارد شاخت" على طرق موضوع الاغتراب في الرواية النسوية الجزائرية، وتحديدًا عند نماذج دون غيرها متمثلة أساسا في ثلاثية فضيلة الفاروق "مزاج مراهقة، تاء الخجل، اكتشاف الشهوة"، ورواية "قليل من العيب يكفي لزهرة ديك"

أثار اهتمامنا هذه النماذج، ودفعتنا للبحث فيها محاولين الوقوف على الإشكالية الآتية: كيف بدت العلاقة بين نفسية الشخصيات والواقع الذي تعيشه، والذي حولها إلى لوحة بكائية مفعمة بالحس الاغترابي؟ هل شكل الاغتراب قيمة نفسية أرهقت الشخصيات في ماضيها وحاضرها؟ ماهي أبرز المظاهر التي خلفها الاغتراب للشخصيات.

للإجابة عن هذه الإشكالية كان المنهج النفسي والموضوعاتي خير معين على سبر أغوار ومكامن الشخصية المغتربة التي ظهرت في نوعين: شخصيات صاحبة سلطة اتخذت من القهر والعنف وسائل للتدخل في تقرير المصائر، وأخرى قابعة تحت تأثير القهر والقمع.

1. مفهوم القهر:

من مظاهر الشخصية المغتربة القهر والحزن¹، "للقهر علاقة بالإحباط الذي يعني ما يحول بين الإنسان وبلوغ مقاصده، أو ما يمنع الفرد أن ينجح في حل ما يشغله من صراع، ويقصد به أيضا تلط الحالة النفسية التي تتسم باليأس والعجز"²، يجد القارئ نفسه أمام شخصيات مقهورة بالدرجة الأولى ومن جميع الجهات: الأسرة، الجماعات الإرهابية، السلطة فجميعهم يمثلهم الرجل كفرد، والمجتمع بعاداته وتقاليده.

يُعد القهر ظاهرة مشتركة بين جميع الروايات، لكنه يختلف باختلاف الأسباب، وذلك وفقا للظروف والمعطيات المحيطة بالشخصيات التي تختلف بدورها، فمنها النسوية ومنها الذكورية، فأما الأولى فنجدها مجسدة في روايات "فضيلة الفاروق"؛ أين يحضر الصوت النسوي كنموذج للشخصية المقهورة في رواياتها الثلاث، والثانية حاضرة في رواية قليل من العيب يكفي.

1.1 المرأة المقهورة:

لقد كانت مضامين نصوصها أرضية خصبة لقهر المرأة، واستلابها، حتى استحالت بطلاتها إلى نموذج ثابت للشخصية المقهورة، وعليه فالتعامل مع هذا النموذج السردي يستلزم الوقوف على المشاعر الوجدانية، التي تنطلق من أعماق الذوات وترجم دواخلها، وهنا تنهض الكاتبة الأنثوية كأداة "ترمي من الكتابة والكلام إلى تفجير كل شروخ جسدها وتموجاته"³. لتعكس نظرة المجتمع للمرأة، وتضع الرجل في خانة الاتهام.

فالشخصيات المغتربة، غير راضية تماما عن ذاتها المقهورة، وعن وضعها البائس، الذي لم يخلف لها سوى الأوجاع والأحزان والرغبة في الموت؛ وعليه فالمرأة المقهورة في هذه الروايات تدين السلطة الذكورية بشكل واضح وصريح؛ فالفتيات المغتصابات لم يختزن مصيرهن، وإنما فرض عليهن بالإكراه، الاختطاف والاعتصاب بكل وحشية؛ مما وُلد في نفوسهن القهر والألم، والشعور بالدونية واحتقار الذات.

إننا أمام إكراه للجسد واغتصاب للأنوثة التي أصبحت وسيلة للتخلص من الأرق والتعب "نحن نصرخ ونبكي ونتألم، وهم يمارسون معنا العيب نتوسل إليهم، نُقبل أرجلهم ألا يفعلوا ذلك لكنهم لا يباليون"⁴؛ فالقهر الممارس على الفتيات بالغضب والقوة والعنف، دون أدنى مراعاة لمشاعرهن، يضعنا أمام صورة المرأة العاجزة المهمشة في حالة استلاب كامل نفسيا وجسديا لا تستطيع المقاومة ولا حماية نفسها أمام قوة الوحوش الآدمية "رزيقة كانت أجملنا لهذا أخذها الأمير لنفسه، لكنها قاومته مثل وحشة وخذشت وجهه، وكادت تُعمي إحدى عينيه... القدر استعان برجلين واغتصبها أمامنا"⁵.

أشار الدكتور "بوشوشة بن جمعة" إلى أن "ظاهرة الاغتصاب تحضر بقوة في عدد مهم من نصوص الرواية المغاربية خاصة منها الجزائرية، وهي تعبر عن تضخم أشكال الكبت والحرامان التي تحوّل الجنس إلى ظاهرة مرضية، وشاذة تفرز أنواعا متفرقة من السلوك الجنسي"⁶ المعدوم القيمة، لسطوته على أعلى ممتلكات المرأة والعائلة، والتي تحولت إلى جسد نفعي تبادل مصالحه الجماعات الإرهابية، لنقرأ الجسد المشوه بفعل الاغتصاب، والقهر والذل، ويؤدي كل هذا إلى انفصال المجتمع والأسرة عن المرأة المغتصبة بسبب جرم لم ترتكبه، فالفتيات اللواتي اغتصبن قوبلن بالرفض والتنكر الاجتماعي والأسري، فالمرأة على امتداد التاريخ مصدر عار قد يحل بالأسرة في أي وقت ولهذا يقابلها الأهل بالرفض ويزيدون مأساتها مأساة أخرى إذ تصبح هما ثقيلًا فلا تستطيع الفكاك من ردود أفعالهم الجائرة ولا تجاوز واقعها القاسي.

لم تقدر الفتيات تجاوز واقعهن القاسي؛ مما يؤكد أن الاغتصاب "ينتهي إلى طريق مسدود؛ حيث تتأذى نفسية المرأة وتعدد ردود أفعالها الناجمة عن الحادثة"⁷، والتي تمثلت بالأساس في جنون "راوية" واختلالها عقليا، وانتحار "رزيقة"، و"يمينية" التي ماتت نازفة على أمل رؤية أحد أفراد أسرته الذين تبرؤوا منها واعتبروها عارا وجب الخلاص منه، وهو ما عبرت عنه الساردة بألم وحرقة "قلت إن الأهل لا يباليون طردوا بناقهم بعد عودتكن، قلت إنهن أصبن بالجنون، وارتمين في حوضن الدعارة، انتحرن"⁸، "لو لم تنتحر رزيقة، لو لم تجن راوية"⁹.

فالقهر مظهر من مظاهر الاغتراب الاجتماعي والنفسي بالنسبة لـ"يمينة" الشخصية المغلوبة على أمرها والمقهورة من جميع الجوانب، الجسد المغتصب، والأب الأناني والمتعالي الذي أنكر أن له ابنة، والمجتمع المتمثل في رجل الشرطة الذي أساء إليها عندما سألتها: هل التحقت بمحض إرادتها؟، أم اختطفت فعلا؟، وكلها تنحصر في صورة الرجل القاهر.

كما تبرز "لويزا" في "مزاج مراهقة" مقهورة بسبب رجال العائلة الذين لم يتوانوا في تعنيفها وإذلالها، واستلابها باسم العادات والتقاليد، فأشد ما تعرضت له "لويزا" هو استلاب حقها في اختيار التخصص الدراسي الذي ترغب فيه، لكنها وجدت نفسها أمام مصير آخر فرض ارتداء الحجاب، الذي يعادل ويوازي التحاقها بالدراسة، كما يوازي القيد والسجن بالنسبة لها، لكنها اختارت الرضوخ لرغبتهم لئلا تخسر كل شيء وهو ما عبّر عنه والدها " ابقى في البيت إذن أو موتي"¹⁰، فالحجاب بالنسبة لها مرتبط بالنساء المتقدمات في السن اللواتي لم يعد أمامهن من غاية للتزيين، ولهذا تقول "تلك الأشياء الجميلة التي كان يحضرها لي، كيف أتركها في خزانتي، وأذهب إلى الجامعة بالجلباب ومنديل مثل جدتي"¹¹، كما أنها تعتبره وسيلة من وسائل التناكر الاجتماعي والخضوع "ما يزعجني هو أنني أرتديه خضوعاً لقراراتهم دون أي إيمان به، إنني أتناكر من أجل أن يدعني والدك وباقي رجال العائلة بسلام، إنني لا أرضي الله بهذا ولكنني أرضي كائنات لتفوقني ذكاء"¹².

كما يظهر لنا "السردي الفاروقي" نموذجا آخر للمرأة المقهورة، إنها الزوجة "شاهي" التي بدت خاضعة للزوج بكل معايير المنظومة الاجتماعية؛ مما أسهم في قهرها وإذلالها، بحجة الوصاية الزوجية والحماية، لهذا يقدمها السردي مستسلمة راضية بما هي عليه، تحكي همومها ومعاناتها مع زوجها بكل قناعة " إنه يطعمنا، ويكسينا ولا يتركنا نحتاج شيئا، لكنه يعني من الذهاب إلى الحمام التركي، ويعني من أشياء كثيرة أما في الفراش... "¹³ في اعتراف "شاهي" شيء من مشاعر الكراهية والنفور، المضمر والمنكحة بالاستسلام والاستجابة لمطالب الزوج وأوامره، والتي تقضي الخضوع للسلطة الزوجية التي تستمد

مشروعيتها من سلطة أكبر مركزية "هي سلطة مؤسساتية دينية واجتماعية الطابع" ¹⁴ استغلها الزوج لصالحه الخاص.

ولأن الرواية تتحدث عن الجسد المنتهك، ورغبته في الانعتاق من الآخر، لكسر تلك الصورة النمطية الجاهزة في المخيال العربي التي ترى المرأة وعاءاً للشهوات، وقيمة خرساء، ليس لها حق الإمتاع والمؤانسة، وهو ما حصل مع "شاهي" حينما قررت أن تسأل زوجها عن مشاعرهما ورغبتها الجنسية فأسكتها بحجة تحريم ذلك، وهو ما يؤكد تجسيد المرأة وتشكيلها لوضعية القهر بكل أوجهها، "بوصفها أكثر العناصر الاجتماعية تعرضاً للانتقاص في قيمتها على جميع الأصعدة سواء المكانة أو الجسد أو الفكر أو الإنتاج" ¹⁵.

تأتي المشاهد المؤطرة برؤية الساردة لتحكي محنة الجسد داخل المؤسسة الزوجية وتطور العلاقة بين "شاهي" وزوجها الذي ينظر لها على أساس أنها "مخلوق قاصر بالفطرة، دوني بحكم الطبيعة، يجب أن يكون البيت مقره، وقلة الكلام إحدى فضائله، أما إذا اضطرت للخروج من البيت فيجب أن يكون ذلك بإذن الزوج ويجب أن تكون مستعدة في كل الأحوال لتلبية بعلمها في الاستمتاع بما متى شاء" ¹⁶، وكيفما شاء لأنه ليس من حقها المطالبة بإشباع عواطفها وغرائزها، وقد وصل الأمر بالزوج إلى التشكيك في أخلاق زوجته، عندما حاولت أن تطرح مشكلة الاستمتاع معه باعتباره رجلاً مثقفاً/ أستاذاً جامعي "حاولت أن أحدثه مرة، ولكنه غضب، وثار شكوكه، قال من علمك أن المرأة تشعر بالمتعة، من علمك هذه الخرافات" ¹⁷.

تناولت الكاتبة هذه القضية بشيء من العري الذي أرادت من خلاله إيصال أفكارها، لكن ما طرحته غير مناهض بتاتا لتعاليم الدين الإسلامي بل بالعكس تماما فالعلاقة الزوجية في نظر ديننا قائمة على المودة والرحمة بين الطرفين، ألم يوصي نبينا الحبيب بالرفق بالقوارير، كما أن الآيات الكريمة الدالة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

لتكتمل بذلك الصورة السلبية والمقهورة لـ"شاهي" بسبب عجزها وخجلها وانصياعها، وتكون بذلك قد وقعت في براثن الاغتراب الاجتماعي والزوجي والنفسي خاصة إذا استسلمت للعجز الذي يتحول في النهاية إلى كم هائل من العُقد وسيول نفسية من مشاعر الكراهية والنفور من عالم المرأة المقهورة التي تتعرض "لاستلاب مضاعف في منظومة القيم والعلاقات الذكورية المهيمنة على الأسرة والمجتمع والثقافة"¹⁸، استلاب يظهر في أدنى الحقوق بخاصة في مجال الحريات الشخصية، وفي مستوى حق المرأة في إبداء الرأي والحوار، حق الإمتاع، حق اختيار شريك الحياة، وبناء أسرة نموذجية، وهي الرؤية التي انبنى عليها الخطاب السردي النسوي.

2.2. الرجل المقهور المسلوب الإرادة:

ليس القهر حليفا للمرأة فحسب بل للرجل نصيب من ذلك، سببه سلطة المرأة وقمعها وخروجها عن تعاليم المؤسسة الاجتماعية والإسلامية في آن، لتظهر المرأة متجاوزة احترام الرجل فنجد الزوجة تتعمد إنقاص قيمة زوجها غير آبهة بمشاعره.

من هذا المنطلق يشعر "دابو" بمعاناة شديدة، ازدادت وتضاعفت بسبب استسلامه لزوجته التي حصنت نفسها بكثير من القيم الذكورية لتضطهد زوجها الذي تحول إلى شخصية مقهورة مغلوب على أمرها تقوم بمختلف مهام البيت من غسيل، وتنظيف هربا من عنف الزوجة المسترجلة "بقدر ما أتفادى غضبها، وتوترها بقدر ما تلاحقني ببلائها وتعبيرها الجارح، لا أتركها تمد يدها لشغل البيت الثقيل، ما عدا طهي الطعام... ليس لأني أريد القيام به؛ بل لأنها تعتقد أنني لا أصلح لشيء سوى تلك الأعمال"¹⁹.

نلمح في هذه الرواية مسألة فقدان الزوج لمركزته، ورجولته ومصادرة جميع حقوقه الجسدية، والنفسية، كأحد ملامح الانفصال عن المتوارث من العادات والتقاليد، وكذا الانفصال عن الزوجة بإهمالها والتلذذ بتعذيبها عن بعد "أخذ يستلذ حرقه زوجته على ما تحتاجه وما ترغب فيه من تلك اللذة الجنسية التي تزرع في المرأة عمرا آخر"²⁰، هنا تزداد معاناة "دابو" لا بعزوفه عن تلبية رغبات زوجته العسكرية وإنما

محاولاته في التصدي لها، والتي كانت تزيد من رغبة الزوجة في تعنيفه وقهره، وإشعاره بالهزيمة في امتلاك زمام الأمور، بعد أن كان دور المرأة في الرواية النسائية ينحصر في الإنجاب والطبخ، أصبح في رواية "قليل من العيب يكفي" عاملا استلابيا وأداة قمعية ضد الرجل .

لهذا كانت تمارس أساليب عديدة ليبقى تحت سيطرتها، مغتربا في أسرته وبيته، وعن دوره الرئيس القائل بوجوب سلطة الرجل على المرأة، إنه يعيش مرارة الحياة بجرقة المنفصل عن مركزه، والمنسلخ عن الأعراف السائدة في مجتمعه الذكوري، فالكاتبة "زهرة ديك" قدمت أنموذجا للمرأة القاهرة والرجل المقهور المستسلم الخاضع لسلطتها وجبروتها؛ وهو أنموذج خالفت من خلاله فكرة القاهر والمقهور، لتشعر الرجل بالتهميش والدونية، وهي كذلك محاولة لتغيير تصور المجتمع، والكف عن مدارات حقائق الظلم الذي تتعرض له المرأة، والاستلاب باسم العادات والتقاليد التي تقتضي حصانة الرجل على المرأة كما تقتضي مغفرة جميع خطاياها، والتماس الأعذار له حين ارتكاب الخطايا والمحرمات مهما عظمت وتدنس .

إن القهر إذا تمكن من الإنسان أباده، وجعله يشعر بالنقص والدونية، وفقدان دابو لرجولته وسلطته أدخله حيز القهر بسبب امرأة سدت منافذ الخلاص أمامه، فأصبح أسيرا لها، فقد استطاعت إذلاله وقهره حد البكاء، فكلما أراد أن يتخلص منها زادت من أساليب قهرها له "كعنفاء تضرب بجناحيها رماد الموت، وتطرده لينخرط في الحياة من جديد، تحييه وتقنيه"²¹، فعلى امتداد الرواية يعرض "دابو" مجموعة غير قليلة من الاعترافات، بزواجه الفاشل المشوه والزوجة المستهترة المسترجلة التي تحمّل جفءها، فراح يعبر بنغم حزين يحمل صدى الاغتراب الذي ألم به إنه الاغتراب الأسري، سببه زوجة عنيفة عبثت برجولته، وتلاعبت بسلميته لينساب القهر إلى تخوم قلبه.

2. الرفض والتمرد:

تعد ظاهرة الرفض والتمرد "نمط سلوكي مبالغ فيه خارج عن حد المؤلف أو حد السواء، وهو شعور بالرفض لكل ما يحيط بالفرد وما يترتب عليه من سلوك قد يتصف بالعداء والكراهية والازدراء لكل ما أصطلح عليه المجتمع من قيم وعادات ونظم، وهو السلوك الراض لكل ما استقر عليه المجتمع وألفه من

عادات وتقاليد²²، كما تُعرَّف على أنها "الكراهية لسائر القيم التي تحكم المجتمع، وتضع الشخصية في مواجهة مع العالم، بل وربما تخيلت أن العالم بأسره ينصب لها العداة"²³.

إن الحديث عن التمرد يقودنا إلى الحديث عن كسر الأنساق الثقافية المتعلقة أساسا بتلك النظرة المرسخة في الوعي الذكوري، والعاملة مع قمع المرأة وازدراؤها "بموجب العضوية العائلية"²⁴، فينشأ في الأسرة الواحدة توترا وتصدعا في العلاقات، التي قد تتطور إلى أن تصبح حالة نفسية مقبنة، تبعث على رفض هذه القيم المكرسة لدونيتها، والتلهي عنها بمجموعة من الحلول الهروبية للتخلص من قيودها الصارمة التي وضعها المجتمع بداخلها، لذلك يكون التمرد جسرا نحو بناء ذاتها وهويتها في شتى الميادين، وتجاوز الحدود الضيقة المحصورة في الحياة اليومية داخل المنزل، والروائيات، عملن على عرض هذا المظهر الاغترابي -الرفض و التمرد- لكننا كما سبق وأن أشرنا سنركز في تأويلنا وتحليلنا لهذا المظهر على النسق الاجتماعي والديني، الذي أربك الشخصيات وجعلها تسعى إلى مثل هذا الفعل سعيا منها لتغيير الواقع و "تجاوز حالة الاغتراب ووضع حد لحالة العجز"²⁵.

وقد برز التمرد والرفض في شكلين واضحين:

1.2 رفض العادات والتقاليد:

على الرغم من شلل الإرادة الذي سببه -الآخر- للمرأة في الروايات المدروسة؛ إلا أن مراقبة تحركاتها من أجل تحديد مساراتها الاجتماعية وفقا للأعراف والتقاليد والقيم الماضية، التي حالت بينها وبين إشباع حاجاتها الأساسية، من تعليم وزواج وإبداع، وتدخل الآخرين في شؤونها ومحاوله قمعها وإحباطها، كلها دفعتها نحو الثورة والتمرد والميل إلى العدوان.

ففي روايات "فضيلة الفارق" تبدو البطلات "خالدة، لويزا، باني" متمردات وتأثرات على وضعهن، كل واحدة حسب الظروف المحيطة بها، ف"خالدة" تبدو ساخطة، ومشمئزة من العادات والتقاليد التي تحكم عائلتها لتظهر علامات تحدي هذه المرجعيات خاصة منها التي تجعل المرأة في المرتبة الثانية بعد الرجل في شتى المجالات حتى المأكل، وهو ماجعلها تفقد أعصابها "أما ما يجعلني أفقد

أعصابي هو فترة الغداء يوم الجمعة²⁶؛ حيث تقوم نساء العائلة بانتظار عودة الرجال والقيام بخدمتهم "أكره أن أكون قطيعا من الدرجة الثانية"²⁷، "كانت تلك أولى بوادر تمردى ومقاومة العائلة"²⁸، يتجلى الاغتراب في الهروب إلى المرض واختيار زاوية في حديقة المنزل، للاعتزال عن أفراد الأسرة، فعندما لا يتم إشباع النزوات والرغبات في الواقع يلوذ الناس "بالمريض كيما يمكنهم بفضله الحصول على الملذات التي تضمن بها عليهم الحياة"²⁹.

إنها لا تشبه "مرسلو بطل الغريب ل: ألبار كامو الذي كان حياديا، وغير مكترث إزاء كل ما يحدث حوله، ابتداءً من موت أمه؛ حيث مفتتح القصة اليوم ماتت أمي، أو ربما ماتت أمس لست أدري"³⁰.

فما يحدث لـ "خالدة" هو الوعي التام بأحقيتها في ممارسة أفعالها بحرية تامة تتنافى وعادات المجتمع وتقاليدته التي تم بموجبها انفصالها عن وحدتها الأصلية لصالح بناء ذاتها والخروج بها من دائرة التبعية والخضوع والسلبية، فلم تعد كما قيل عنها "كائن حسي سجين أشياء جسده ولا يمكن أن يرقى إلى مستوى المتقدم فكريا"³¹.

وأمام تزمت العائلة تتسلح خالدة، بالرفض والتمرد لقهرهم، والخروج من قيودهم، للوصول إلى تحقيق ذاتها "سأرى من سيكسر من أنا أم هم"³²، إنه تحدي جريء لامرأة مقابل مجموعة من الرجال وصل بهم التزمت حد الخلط بين العلم والشرف "يا رجل كل بنات العائلة، يعدن حبالى، فهل ستنتظر حتى تأتيك بالعار؟"³³، إنها عقدة الخلط بين تعليم المرأة وشرف العائلة في زمن كان الحرص على البنت والشرف يكاد يصبح سجنا لها كإنسان³⁴، فكأن تعليم المرأة في نظر عائلة خالدة لا قيمة له بل هو خطر عليها وعليهم باعتبارها شرفهم الذي ينبغي المحافظة عليه، فثمة خوف وتوجس من تعليمها، وفي هذا إلغاء للمرأة ذاتا وقيمة، وإخفاء لكيونتها الإنسانية، وإلحاق العار بها، فحرمانها من التعليم باسم

العادات والتقاليد "يعني لهم حمايتها من الغدر والفحش كما يعني حمايتها من إقامة جسور العشق وتسهيل سبل الخيانة"³⁵.

وأمام إلحاح خالدة على الثورة والتمرد على السلطة الذكورية، تجذ نفسها في مواجهة دامية مع رئيس التحرير، الذي لم يكن أقل سوءًا منهم في رغبته الملحة على فضح الفتيات المغتصابات، اللواتي أصبحن مهمشات في المجتمع ومنسيات في عائلاتهم "ضرب بقبضة على الطاولة، ما الذي أصابك اليوم؟"³⁶؛ فبينما يصير رئيس التحرير على فضح جسد الأنتى المهان، ترفض هي استلاب المرأة وفضحها لتساوى بذلك الذات الكاتبة -خالدة- والذات المغتصبة "أفضح يمينة، أفضح نفسي"³⁷ إنهما تُفضّل الصمت إذا كان الكلام إدانة وتشويها "لن أكتب الموضوع انتهى الأم"³⁸، "أمام سيف شهريار يكون على شهرة زاد إذا ما فارت طبيعة جسدها أن تضطر إلى السكوت عما تحس به وترغب فيه فتصبح محرومة حتى من اللغة ولا تجرؤ على رواية حكايات جسدها"³⁹ لتعود خالدة إلى تلك الدائرة المقيتة -العائلة- وتقاليدها، التي حاولت التخلص منها والتمرد على قوانينها، لكنها عودت إجبارية "إذن سيقول الأهل والأقارب، وكل من يعرف اسمي هذه ابنة عبد الحفيظ مقران تفضح واحدة منا"⁴⁰.

وهو ما يؤكد حقيقة المعركة الخاسرة التي خاضتها خالدة في طريق التحرر، وكسر رجال العائلة بكل ما يحملونه من ثقل العادات والتقاليد، والمراقبة الصارمة التي ضلت تلاحقها لتثبت لها أن بنية المجتمع العربي ثابتة، وأنه لا مناص من تغييرها ومحاربتها.

إنه الشعور بالخوف من رهان المستقبل والأهل، ولهذا فهي تحاول تجنب الكتابة كما لو كانت طاعونا على حد تعبير "كارل ماركس" في حديثه عن اغتراب العمل؛ "حينما لا يشعره صاحبه بالألفة نحوه، لأنه لا يشكله؛ ولا علاقة له باهتماماته"⁴¹، وقد رأت "خالدة" أن الكتابة إدانة لها وفضح لبني جنسها، حتى وإن كانت الوسيلة المثلى لتحقيق الذات "فالخكي إغراء ومقاومة، واستدراج إلى عوامل تحفها دوائر التجديد، والذين يملكون الحكايات أشد حضورا في التاريخ من الذين لا حكاية لهم"⁴².

في ظل الحماية والوصاية باسم العادات والتقاليد ورجال العائلة تشعر "لويزا" بانسلاخ كيانها، وانعدام جوانبها الذاتية والموضوعية، ولكنها لم تستسلم ولم ترضخ لأوامرهم وتمنياهم؛ بل حاولت مرارا فك الحصار والأسر بالثورة والتحدي، بدءًا بنزع الحجاب في الشارع الذي فرضه عليها أعمامها، وأبناؤهم "لم أجد وسيلة لحرق دمه غير نزع الخمار من على رأسي والإلقاء به في وجهه؟"⁴³.

بعد أن كانت "لويزا" شخصية مسلوقة الإرادة ها هي تتحول إلى شخصية ثائرة متمردة على المجتمع الذكوري الذي أراد لها أن تبقى في تلك "الهوة التي يلفها الحياء والخجل والكبت والديكتاتورية"⁴⁴.

"لويزا" لم تجد أمامها سوى التخلي عن ذاتها الأصلية - الأنثى - بكل ما تحمله من خجل وخوف، لصالح بناء كيان مستقل ومنفصل عن المجتمع والعائلة، وليس لها من سبيل لبلوغ ذلك إلا الامتثال بالأقوى والأقدر - الرجل - (كان تقمصي للشخصية الذكورية يكفني لأخذ سمة القوة سواء أمام نفسي أم غيري"⁴⁵، "فنتيجة للمعاناة والحياة المسجحة التي عاشتها المرأة الشرقية فرضت عليها أن تبحث عن منفذ واحد لنكران أنوثتها"⁴⁶، وهو ما حاولت لويزا تجسيده في لحظة إحساس بالقهر والتهميش من قبل رجال العائلة .

لم تظهر "لويزا" بهذا المظهر وهذه الرغبة لوحدها، فحتى "باني" بطلة "اكتشاف الشهوة" الرغبة والميول نفسه للآخر والامتثال به والتماهي في شخصيته "كانت رغبتى الأولى أن أصبح صبيًا، ولهذا تحولت إلى كائن لا أنثى ولا ذكر، لا هوية لي غير الغضب الذي يملأني تجاه العالم (كنت الصبي ذا الضفائر الطويلة كنت صبيًا مشوها"⁴⁷.

يكشف هذا المنقول السردى عن رغبة محمومة في الأخذ بالملامح الذكورية التي تعني معيار القيمة والحرية للمرأة ستظل واهمة أنه في أن تكون إنسانا سويا وحرًا، فما عليها سوى محاقات الذكور والأخذ بقيمهم، لما يملكونه من قيم قوة وشجاعة.

إن بطلات "فضيلة الفاروق" يقتتن من دائرة المركز ويرتدين مقومات الذكورة قناعا للتشكر والمقاومة، مقاومة الشعور بالتمزق والخوف الذي يعمل دائما على تكريس المرأة لصالح الرجل، "وكأن فاعلية المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية، والسياسية فاعلية هامشية لا تكتسب دلالاتها إلا من خلال فاعلية الرجل"⁴⁸، وهو ما جاء على لسان البطلة "الخوف مرضنا المزمّن، الخوف من الكل هو الدرس الأول الذي تلقنه العائلات لبناتها، ولهذا تبدو خمسمائة شابة كمجموعة من الفئران يبعثرها قط واحد أعرج، كنت أكره في النساء هذه الخصلة كنت أكره نفسي أحيانا للسبب نفسه؛ فالرجل هو دائما القط الذي ينتظر فأرته في زاوية ما"⁴⁹.

هذا هو الخوف الذي أزعج الكاتبة وجعلها ترفض مثل هذا التقليد الذي تُلقنه العائلات لبناتهم، فالكاتبة "فضيلة الفاروق" التعبير عن رغبة المرأة المحمومة في الأخذ بالملامح الذكورية التي تعني معيار القيمة والحرية، فالمرأة تريد التعدي على خصوصيات ومبادئ لم تخلق لها، وتعلم أن في ذلك طمسا للهوية، وجعلا للذات في منأى واغتراب عن الذات الأصلية؛ الأنوثة، وما تحمله من معاني العذوبة والجمال.

2.2 التمرد على أحكام المؤسسة الزوجية:

سبقت الإشارة في رواية "اكتشاف الشهوة" إلى أن الاغتراب الزوجي بين المرأة والرجل ناتج عن شعور المرأة بأن هناك استلابا لحقوقها في المؤسسة الزوجية، باسم العادات والتقاليد⁵⁰، السبب الذي جعل "باني" تتمرد على قوانين هذه المؤسسة، وتتجاوز الأحكام الدينية، النابذة لمثل هذا التصرف - الخيانة-، فوجدت نفسها في عالم مقفر، إثر تصدع العلاقة بينها وبين زوجها "مود" لتتسع الهوة بينهما "اتسعت الهوة بيننا صارت خندقا عميقا بحجم الليل، وحتما لم يكن "مود" باتساع الهوة بيننا، كان يعود ثملا في الغالب والحمرة النسائية تلتخ قميصه"⁵¹.

فالخيانة ليست سوى رد فعل انتقامي ضد الزوج، الذي بدت عليه اللامبالاة بمشاعرها، فأراد الانتصار لكرامتها واستعادة الهوية الضائعة، فراحت تطرق أبواب الخيانة "أهرب إلى ماري التي أصبحت تعرف الكثير عن علاقتي بمود وعلاقتي بإيس"⁵².

إنها الرغبة في الانفصال عن الزوج بجميع بروتوكولاته لعدم شعورها بالالتلاف والاندماج النفسيين والسبب الأساسي في كل هذا العائلة التي تسعى إلى تزويج بناتها من أول خاطب لها، سيما إذا كان من أصحاب النفوذ وهو ما حصل لـ "باني"؛ حيث تم تزويجها تحت الصلاحية الباهظة من جهة الأب ممن لا تحب، الرجل المقري "خمس وثلاثون سنة وأنا في انتظار عريس يليق بحجم انتظاري، ورهافة مشاعري، وإذا بي كما يقول المثل "صام صام وفطر على بصله"⁵³.

تنهض الذات لتجد نفسها في سكون موحش خيم على حياتها الجديدة -الزوجية- مما يشي بحالة الانفصال النفسي المؤلم، فلا تكاد تلتقي بزوجها وتتكلم معه "كان صعب عليّ أن أتفاهم معه، ولغة التخاطب عنده لها عدة أشكال مبهمة"⁵⁴، لتبدأ رحلة البحث عن الشيء المفقود بامتطاء الخيانة والتمرد على ثقافة الزواج، وممارساته الفجة، ليكون "إيس" أول محطة تسد بها فراغ "مود" هربت من مود... هربت من مزاجه الصاحي العكر وصراخه الذي يجعل يومي معتم"⁵⁵.

فالفهم الخاطيء للزواج، وللغة الجسد، وانعدام الأحاسيس والعواطف "استحال إلى سوط عذاب"⁵⁶، وحركة انتقامية تمثل الخيانة، والدخول في أكثر من علاقة غير شرعية مع "إيس" ثم "توفيق". حاولت الكاتبة طرح مسألة الزواج عندما يكون وئدا للحياة امرأة كانت أم رجلا، ثم التركيز على الخلل والعطب الذي يصيب هذه العلاقة، مما يدفع بالزوجين إلى مشاعر الكره والعداية والكآبة والضجر، فإن كانت الكاتبة فضيلة الفاروق وجهت أصابع الاتهام وكامل المسؤولية في تصدع العلاقة الزوجية إلى الرجل فإن الكاتبة زهرة ديك جعلت المرأة سببا مباشرا في التصدع الناتج عن رغبتها في قلب الموازين والأدوار داخل المؤسسة الزوجية.

خاتمة:

مما سبق تأكد لنا أن الواقع الاجتماعي بكافة مؤسساته قد أسهم في تعميق الشعور بالاغتراب؛ فالمصائر التعيسة والبائسة التي لفت حبلها حول أعناق الشخصيات جعلتها تتدحرج من اغتراب إلى آخر، وأخيرا تظهروها بأكثر من مظهر اغترابي كالقهر والرفض والتمرد، وانعدام الأمن وفقدانه الذي تباينت حدته من شخصية إلى أخرى.

رفض الشخصيات وتمردها لم يأت من فراغ وعدم بل أسهمت في تولده أسباب عديدة منها ما تعلق بالعائلة، والزوج، وأخرى تعلقت بالعادات والتقاليد الفجة التي أبادت أحلام الذوات الفاعلة في هذه الروايات.

تباين التعامل مع القهر في الروايات المدروسة فكان القهر من نصيب الرجل في روايات فضيلة الفاروق، فقد بدا صاحب سلطة متمثلة في شخصية الوالد، الأخ، الزوج، الرئيس في العمل، أي أن السلطة هنا متمثلة بجنس الرجل، فيما كانت هذه السلطة من نصيب المرأة في رواية زهرة ديك التي عملت على قلب الموازين والأدوار داخل المؤسسة الزوجية فأصبحت المرأة قاهرة ومعنفة للرجل، فيما أخذ هو دور المستسلم والخاضع لأوامرها وأفعالها.

جاء الرفض في الروايات المدروسة على شكلين: رفض للعادات والتقاليد التي ترى أنها تحمي المرأة من التصرفات غير لائقة لها، أما الشكل الثاني فجاء في رفض المرأة لقوانين الزوج وبرتوكولاته.

الهوامش والإحالات:

¹ علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 10، ع 1، 1999، ص280.

² ماجد موريس إبراهيم، سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص18.

³ محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1988.

ص 35.

⁴ فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ط1، 2003.

ص 45.

- 5 المصدر نفسه، ص 55.
- 6 ينظر: بن جمعة بوشوشة، الرواية النسائية المغاربية، المغربية للطباعة والنشر، تونس، دت، ص 66.
- 7 المرجع نفسه، ص 63.
- 8 فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 78.
- 9 المصدر نفسه، ص 70.
- 10 فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1999 ص 12.
- 11 المصدر نفسه، ص 15.
- 12 المصدر نفسه، ص 20.
- 13 فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ط1، 2006، ص 90، 91.
- 14 نihal مهيدات، الآخر في الرواية النسوية، خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008، ص 17.
- 15 ينظر: أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007 ص 135.
- 16 عفيف فراج، المرأة بين الفكر والإبداع، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009، ص 55.
- 17 فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص 92.
- 18 ينظر: حسين المناصرة، قراءات في المنظور السردى النسوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، دط، 2013، ص 51.
- 19 زهرة ديك، قليل من العيب يكفي، دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 309.
- 20 المصدر نفسه، ص 310.
- 21 ينظر: إدريس الكريوي، بلاغة السرد في الرواية العربية، دار الأمان، الرياض، ط1، 2014، ص 172.
- 22 فيصل حسين غوادرة، التمرّد في شعر العصر العباسي الأول، جبهة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، 2012، ص 15.

- 23 أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، مرجع سابق، ص 155.
- 24 حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006، ص 115.
- 25 المرجع نفسه، ص 62.
- 26 فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 24.
- 27 المصدر نفسه، ص 24
- 28 المصدر نفسه، ص 24.
- 29 فيصل عباس، الاغتراب وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط 1، 2008، ص 302
- 30 ألبير كامو، الغريب، تر: عايدة إدريس، دار الآداب، بيروت، دط، 1990، ص 9.
- 31 محمد نور الدين افاية، الهوية والاختلاف، ص 34.
- 32 فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 30.
- 33 المصدر نفسه، ص 28.
- 34 يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى للطباعة والنشر، دط، 2007، ص 47.
- 35 عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2006، ص 47.
- 36 فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 60.
- 37 المصدر نفسه، ص 57.
- 38 المصدر نفسه، ص 54.
- 39 نزيه أبو نضال، حدائق الأنتى، دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، أزمدة للنشر والتوزيع، ط 1، 2009، ص 220.
- 40 فضيلة الفاروق، تاء الخجل، ص 57.

- 41 رتشارد شاخت، الاغتراب، تر: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص 147، 148.
- 42 سعيد بن كراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2000، ص 102.
- 43 فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، ص 50، 51.
- 44 المصدر نفسه، 212.
- 45 المصدر نفسه، ص 122.
- 46 حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، ص46.
- 47 فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص 14، 15.
- 48 نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2001، ص 29.
- 49 فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، ص 124.
- 50 ينظر: أميرة الزهراني، الذات في مواجهة العالم، ص 109.
- 51 فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، ص 12.
- 52 المصدر نفسه، ص 34، 35.
- 53 المصدر نفسه، ص 10.
- 54 المصدر نفسه، ص 11.
- 55 المصدر نفسه، ص 28.
- 56 أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، ص 139.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إدريس الكريوي، بلاغة السرد في الرواية العربية، دار الأمان، الرياض، ط1، 2014.
2. ألبير كامو، الغريب، تر: عايدة إدريس، دار الآداب، بيروت، دط، 1990.

3. أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007.
4. بن جمعة بوشوشة، الرواية النسائية المغاربية، المغربية للطباعة والنشر، تونس، دت.
5. حسين المناصرة، قراءات في المنظور السردى النسوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، دط، 2013.
6. حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
7. رتشارد شاخنت، الاغتراب،، تر: كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
8. زهرة ديك، قليل من العيب يكفي، دار بغدادى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
9. سعيد بن كراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002.
10. عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006.
11. عفيف فراج، المرأة بين الفكر والإبداع، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009.
12. علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 10، ع 1، 1999، ص280.
13. فضيلة الفاروق، اكتشاف الشهوة، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ط1، 2006.
14. فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، ط1، 2003.
15. فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1999.
16. فيصل حسين غوادرة، التمرد في شعر العصر العباسي الأول، جبهة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، 2012.
17. فيصل عباس، الاغتراب وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 2008.
18. ماجد موريس إبراهيم، سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
19. محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1988.
20. نزيه أبو نضال، حدائق الأنتى، دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
21. نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2001.
22. نihal مهيدات، الآخر في الرواية النسوية، خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2008.
23. يحي بوعزيز، المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى للطباعة والنشر، دط، 2007.